مناورات الصوت عند انيس الرافعي

قراءة في فاعلية النص القصصي

د. لؤي حمزة عباس

ان تكون القصة القصيرة دأباً حياتياً، وان يتحول الفن في انتظامه الاجناسي معطى وجودياً، وتجلياً امثل من تجليات المعرفة، وان تكون (الاستعانة) بالقصة القصيرة، ضرورة واختياراً بما تنتظم فيه من أداء أقرب الى الرياضيات في جلاء نظرها الى طبيعة العلاقات الكونية المنتجة، فان ذلك يقودنا الى رصد طرائق الوعي الممثلة كتابياً، وتأمل نمذجة الانتاج والتوجيه التي تشكل باستمرار صورة الكائن وهو يرصد كينونته في لحظة عميقة من لحظات الاتصال والانفصال، يتأملها على مرايا الكلمات وبريق امواجها الجارية، حيث تكون كتابتك هي انت ، وهي بعض من مخبوئية الكائن في نظم كتابته، ان القصة القصيرة، بذلك تتعدى حدود (العقيدة) حيث يفتح بورخس باباً سرياً من أبوابه الزمنية ليدخل متاهة الحلم والحياة، وينصت أدغار ألن لو، وتشيخوف ووليم (الاعتقاد) الى لحظة من التماهي الخلاق، ساروين، ويوسف ادريس، ومحمد خضير الى واحد من اعمق الاصوات الإنسانية واكثرها فتنة وجلالاً: صوت القصة القصيرة الذي يعمل في نشدانه المستحيل على ان ينتجنا ذوات حكائية تتخيل، حيث لا يبدو ثمة فاصل معلوم بين حلم وواقع، وبين حقيقة وخيال.

تشكل (مناورة الصوت) فرصة لاقتراح سبل لمناورة الفعل الادبي في عوالم ما بعد السرد وهي تحيل المظهر الوجودي الى معادل كتابي واعٍ، مدرك، ومرصود كما في تجربة انيس الرافعي، صاحب (البرشمان) الذي يؤكد سمات حقله الجمالية ويعمل على تنويعه في آن، هذا الحقل الذي اقترح سمة تجريبية بينة تعلن عصيانها على التبويب والتحقيل وان عبر صاحبها عن (اخلاصه الحديدي لعقيدة القصة القصيرة) التي لم تعد محافظة بين يديه على خصائصها المعروفة وانما استعانت بالشعر لكسر ظلال الشعر داخل الفضاء القصصي، مثلما استعانت بالمظهر الدرامي لكسر هيمنة الحدث والخروج عن مركزيته في هرمية النص القصصي الجديد، إن الشعر والدراما لا يحضران داخل تشكلات نصوص انيس الرافعي بوصفهما شبهتين تقللان من اخلاص الكاتب للقصة القصيرة او توصمانه بـ(نوع مشين من القفز على الحواجز بين الاجناس الادبية) انما هو سعي لادراك قابلية القصة القصيرة على ان تشكل برهانها، على ان تكون برهان ذاتها، مثلما كانت، بحسب سوزان لوهافز، أقدم الانواع واكثرها قيمة لانها تعبر عن اقدم نزوعات الإنسان وهو يعيد قص تجاربه.

ان تكون القصة القصيرة صوتاً، في مثل هذا الدأب، يعني ان تقترح مجالاً مضافاً لمعاينة سيرورتها، وتفتح باباً لم تلمسه، من قبل يدا بورخس المبصرتان، بعد ان ضاقت ابواب القصة امام بوابات الرواية التي تعيد تفصيل مقولتي التأريخ والمجتمع، مثلما تعيد عبرهما رصدها التجربة الإنسانية واسعة الثراء، ان القصة الصوتية خطوة يقترحها انيس الرافعي من فضاء الاحتمال الى فضاء التحقق، هذا التحقق الذي يظل بحاجة الى ما يبرهن على قدرته ويؤكد أحقيته في التعبير عن تحولات التجربة القصصية.

فهل همس انيس بتحوله الكتابي؟ وهل يملك تحوله ان يهمس بفاعلية قصصية قادرة على اضاءة براهينها؟

يقترح انيس كتابته كتاباً منسوباً لـ(الهماسة) معرفاً اياه في بنية عنوان ذات متجهات بـ(مناورات صوتية بالسرد)، كأن بامكان الكتابة الا تكون مناورة، وكأن ثمة مناورة، أية مناورة، خارج السرد، وهو ما يتكرر متوزعاً على نصين يشدهما (طاكو) و (كاطو) شخصيتا النصين ومركزاً حركتهما السردية وهما يتحولان من (ملهى الكازار) الى (ملعب "الأب جيكو") مختزلين نسقاً عماده التحول والتغير والانقلاب كما في المقامات والحكايات الشعبية والاسمار والخرفات، هذه التحولات التي تمنح السرد في كل مرة قابلية على اتمام حركته، وكل اتمام هو فاتحة تحول يكون عماد تجربة مضافة، هذه التجربة التي وجدت في النصين فضاءها في الانفصال عن اللحظة الراهنة والدخول الى لحظة مساحتها النص السردي، فالنصان يختتمان بـ:

(بالتأكيد حانت ساعة العودة! ياللتعاسة)

(بالتأكيد، لقد حانت –مرة أخرى– ساعة العودة! يا للتعاسة!)

إن (العودة) تمنحنا تصوراً خاصاً لمعاينة التجربة وتحديد موقعها، فليس ثمة عودة الا بعد خروج، إن (طاكو) و (كاطو) يعودان في خاتمتي نصي أنيس الرافعي الى ما لم يعلن عنه قبل مساحة السرد، فليس ثمة غير (التعاسة) باباً للانفصال عن النص والالتحام بما قبله، فهل تكون العودة مناورة أخرى للدخول في سردية الصوت واختبار قدراته القصصية، هذه القدرات التي عولت في التقاطها تشكلات الحدث على (الصوت) قيمة بنائية، يترجمها البعد الكاليغرافي بانتاج تقابلاته الخطية في تدوين اللفظ، ليكون الصوت ولوازمه، واللفظة وابدالات حروفها، التي يمكن تحديد دورها في بنائية النصين مع تسمية شخصيتيهما الرئيستين، مجالاً لإضاءة محتوى النص والتعبير عن بواطنه:

(طاكو وكاطو) يندلقان بصعوبة جارفة عبر الحنجرة الضيقة للبوابة رقم ٥، بعد ان خاضا غمار معركة طاحنة:

من النخس والمعس،
من الدعس والدهس،
من الشتف والرتف،
من الرفس والرفش،
من الدفش والنفش،
من التطاوح والتطايح

مثلما تتواصل المناورات الصوتية للنصوص عبر تحولاتها اللفظية:

يما.. ديما.. رجاء.
ديما.. رجاء.. دماء.
رجاء.. دماء.. دماء.

لينهض (الصوت) بفاعلية الاداء القصصي وهو يختصر المساحة اللفظية للنص ويوسع من ظلاله الدلالية مثلما شكل متجهاً أساسياً بين متجهاته بما يعين انيس الرافعي على انجاز وثائقه النصية داخل "مشغل مفتوح" لجنس تحسس تعقيده البالغ، بتعبير خوليو كورتزار، موقناً (ان الحدث الصغير بمرور الوقت يمكن ان يصنع نتائج ضخمة).

ما أجملَ العالمَ في منتصف الذاكرة!

فاضل السلطاني

ما أجمل العالمَ في منتصف الذاكرة!
أنتِ لم تذهبي بعدُ.
شعركَ ينحني فوق المائدة،
يطول أو يقصرُ،
يعود الجنودُ من الحربِ،
ويعودون إلى الحربِ،
يكبرون في الموت،
وينجبون بناتٍ مثلكِ
فارعاتٍ كالآلهة
وأنتِ هنا
لم تذهبي بعدُ.
يدخل اليهودُ في الدين*،
يقوم اليعازرُ،
يهجر الصابئةُ الماءَ
وأنتَ لا تزالين هنا
تعمدينني في حمامك الصغير،
وسط العالمِ،
تمتدّ يداكِ إلى منتصف العالمِ
سفينتين ضائعتين
- متى تنامُ يداك؟ -
حتى يعودَ الجنودُ من الحربِ.
ما أجمل العالمَ في منتصفِ الذاكرة!
وأنت هناك،
في حديقة الطفولة الصغيرة،
تدخلينَ وتخرجين،
تلوّنكِ النباتاتُ،
وتلهو بك العصافيرُ
حتى تنفقَ من الحُب،
وأنت لا تزالين هنا
تمدين أصابعكِ إلى منتصفِ العالمِ
حتى يعودَ الجنودُ من الحربِ
وينجبوا بناتٍ مثلكِ
يلوّنّ النباتاتِ،
ويلهوْن بالعصافيرِ
حتى يمرضنَ من الحب،
يطول شعرك أو يقصرُ
فوق المائدة،
في حديقة الشيخوخة الصغيرة،
في منتصف العالمِ،
في منتصف الموتِ
حتى يجوعَ التراب.
ابقي هنا
إلى أينَ ستذهبين؟

ما أجمل العالمَ في منتصف الذاكرة!

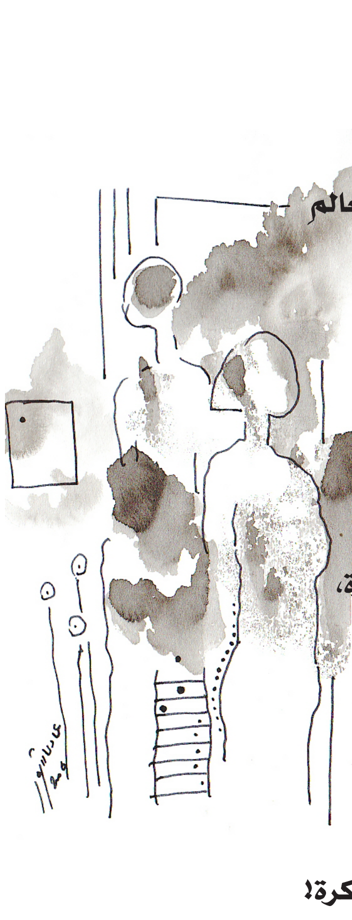

* الشاعر الانجليزي اندرو مارفل، من قصيدة "إلى حبيبته الخجول".

كان لابدّ من قصيدة

نوفل ابورغيف

كل ما حولنا قابل للتلاشي ، ليس ثمةّ ما يستحق البقاء ، بلى .... فحينما تصير الاشياء الجميلة ضربا من التمني والغريب و حكايات المساء ، يكون حريا ان نتمسك بسواها،

فما الذي يستحق الخلود ما دامت انفاس الوطن تشهق بالخسائر ،كل لحظة ،وتستمر بالتقطع كأشلائنا في زمانِ الفجيعةً ؟

الا ان حزنا جميلاً وزمناً وحنيناً خرافياً ، وقصيدة تتلملم من كل هذا ، وتفاصيل قد لا تستدعيها لحظة الكتابة ، يجعل من الحزن العراقي بلسما لهذه الجراح النبية.

. ولكن ... هل تتخلى العصافير عن ذاكرتها بمجرد ان تغادر اعشاشها لاسابيع ؟! وهل لاطفال هذا الوطن الابديّ ،ان يبرحوا دفئه واسراره وانينه الذي ينزّ من اطراف البساتين التي شاخت والنخيل الذي يدفن انينه قريباً من شاطئ الانتظار ليخرجه عندما يهجع الناس ، صلاةً عربيةً وأغنيةً بطعم الالم؟

ماذا يمكن ان يختصر هذا السفر الى الله...... من اسئلتنا ؟ ما ان تحلّق الطائرة فوق بغداد وما ان تطأ القوافل شبراً واحدا من الارض الاخرى حتى يتصبب على اجسادنا وعلى شفاهنا حنين لم نشعر به من قبل .... ولا ندري هل ،لأننا ذاهبون لنكون في حضرة الله؟!!، ام لأنه وطنٌ تعودنا ان نقاسمه عطشنا وانتظاراتنا ، شعور اشبه بنوبة العذاب الجميل .. اكبر من ان يوصف او يتجلى ...

. حين شددنا حقائبنا وأخذنا بياضاتنا متوجهين الى ارض يرتعد كل من سيكون بأزائها ، كنا نسمع صوت بلادنا وكأنها تستحيي من ان تطلب من اطفالها أن ينشروا اوجاعها عندما تزدحم ارواح العالمين في ذلك المشهد العجيب... قريباً من الله ، فهي تكابر وتتأبى حد الذبول .. وهناك حين ندس وصاياها ، ربما لن يشعر بنا احد..أما حبيباتنا اللاتيّ كنّ آخر من ودّعنا واول من أستقبلنا على طريقة اليمام. زوجاتنا . أخواتنا وماتبقى من عماتنا. وخالاتنا اللاتي رماهن القدر بعيدا ، فقد جعلن في اعناقنا امانةً ، ان نردد كلما عبرنا على جسر الساعات الى ذواتنا، اللهم اجعلهن معنا في المرة القادمة. وهكذا تركناهن في رعاية خلفائنا وانطلقنا،

وهناك.... حيث يصير الوطن ضالة نُفتش عن اسباب العودة اليها..

كنتُ اخالهُ الهاً آخر يترامى بين (الصفا والمروة) و (عند المشعر الحرام)...

وفي (عرفات) بينما تعود الملايين من رحلة الوقوف على الربا ، كان يهمس في صمته بحميمية كل آباء الدنيا قائلا :

أقبّل الارواح التي منحتني هذا الزمن النديّ العاجل وجعلته سراً أبديا ، واقبل الانامل التي تصفحت دفاتري وأنحني امام أية ذاكرة حفظتني في زمن الخراب مثلما انحني خاشعا امام هذا الزمن العراقي العنيد الذي جمعني وأياكم على ضفاف الرحمن بالرغم من انف الزمن المفخخ والغدر الابشع والتهجير والموت المزمن

ولكن كان لابدّ من قصيدة نُضمّد بها نزف احلامنا القديمة ولا بُدّ من لغة نَفقهها نحن لوحدنا ،نحن العراقيين، فثمةُ جراح لا تضمدها الا القصائد وثمة وطن سنأوي الى حضنه آخر الليل وقد انهكه الوقوف وهددتهُ المكابرة وأدمنتهُ نايات الجنوب. ماذا سنقول ساعتها حين تستيقظ النجوم وتغفو النهارات ونحصي ما تبقى من أسمائنا ؟ ليس سوى القصيدة من اجابة.

أيها الناس يا بقايا بلاد الذبح والطفولة والملائكة والاغاني...

في موسم الحجّ هذا كنّا انا وأُمي نتقاسم الدعاء ونبتكر كل لحظة صلاة جديدة حول الكعبة

و طوافا لا نتمنّى أن ينتهي أبدا لكي لاتنتهي قصيدة الوطن التي حملناها لنزرعها في كل شوط عند الركن الذي ولد علي ابن ابي طالب عنده .... ياَلهذا الوطن المبتلى هل سننساه في رحلة لن تطول؟!! ولكنّه أوصانا بالدعاء،كل شيء كان مُختلفا هناك ، لا العصافير ولا النخل ولا رائحة التراب كما في بلادنا،كنا نتذاكر وأمي والقافلة التي تضمنّا وطنُنا يُذبَح ويُسبى منذ مطلع الشمس حتى نعوشنا ، كان العالم الوافد الى الله هناك يتلاقف دمعنا لكي يتوضأ به وينضم الى كرنفال ابيض يتعالى في سماء مكة مرددا(اللهمّ احفظ العراق والعراقيين) وكنا نستحم بدمع له طعمٌ غريب ونتلاقف بعضهُ لنسقي نبضنا الذي بذرناه على جدران الكعبة لينبت مدنا عراقية جديدة .

نعم.... ربما ما زال الوطن مؤجلاً ومن يدري متى سيولد هذا الفرح الآجل وربما اكل من جرفنا نحن الشعراء والمحترقين القاً وحباً ما تبقى من الحسد والضغينة في زمن القماءة والموت المنظّم ...... فلنصنع من طين الحزن الذي يملؤنا حد السعادة ، ومن اشلائنا التي يتقاسمها تجّار الحروب والقاتلون وغير المثقفين ، من كل هذا الموت الذي تستفيق عليه صباحات بغداد من اللاجدوى.. من اصرارنا القديم ، من قصيدة العمود ، ومن النص المفتوح، ومن صدورنا وهي تفتتح حوار الحضارات، ومن صبرنا وهو يروّضنا على نقد الذات ، ومن هذا الولع الغريب بمعرفة العالم.. وكيف لا ؟ والحديث عن العراقيين...

فلنصنع من كلّ هذا الطيف الملون فرحنا وننسج من خيوط الدخان الاسود فجرا عنيداً كأحزاننا وسوف نغزل شمسا جنوبية تضيء كل العراق، وننحت وطناً يليقُ بعذابنا الأشم وبصبر امهاتنا وهن يذبلن بانتظارنا ويسكبن خلفنا ماء الحفظ لكي نعود ويودعن انفاسهن في قمصاننا حرزا ودعاءا وامنيات .. لأطفالنا الذين لم يأتوا بعد وربما لن يأتوا، وقد يأتون بعد سفرنا الاخير حاملين راية الوطن المعصوم.

القادم المتبقي فرصةٌ للعودة الى ذواتنا فقد لانلتقي على نفس المسافة من التعب وقد ننتبهُ الى لحظة لا يسكنها سوانا:

وقد يجمعُ الله الشتيتين بعدما
يظنّان كل الظنّ ان لا تلاقيا.

شكرا من جديد لدعاء الحبيبة فهو يحرسُ احلامنا ويجعلها تنمو سريعا..

شكرا لآبائنا فقد زرعوا هذا الوطن الشامخ بأجسادهم ، لتولَد احلامنا

مثقلة بالحروب فتصحو هواجسنا نخلا وقصائد وسفراً .

أوراق تراثية

إعداد / عادل العامل

حكايات الأمثال

تمثل الأقوال المأثورة و الأمثال العربية تلخيصا لخبرات و حالات و مواقف ذات مغزى في حياة العرب اليومية آنذاك أصبح تداولها فيما بعد تعبيرا عما تتضمنه من حكمة أو تحذير أو تنبيه للمتلقي إلى ما قد يحصل له من مستحسن الأمور أو مستقبحها كالذي كان أصل المثل عند إطلاقه .

و تختلف الأمثال ، في جوهرها ، باختلاف المجتمعات و الفئات الاجتماعية و الأماكن و الأزمان و الغايات

و المواقف من الأحداث و الحالات التي تقال فيها ، بالطبع .

فهناك أمثال أفرزتها حياة العرب في الصحراء و القرى و الأرياف وفقا لمفاهيمهم القبلية و شروط عيشهم و معايير نظرتهم الاجتماعية إلى وقائع حياتهم المختلفة . و أخرى ارتبطت ، بألفاظها و معانيها و مدلولاتها ، بحياة فئة معينة من الناس ، كأهل الحرَف و الصناعات ، و الصعاليك و اللصوص ، و العشاق ، و البخلاء ، و الأشراف ، و التقاة و غيرهم .

كما أن هناك من الأمثال ما يمكن تصنيفه فيما هو سيء أو حسن ، وفقاً لموقف المرء من الواقعة التي يقال لها هذا المثل أو ذاك ، كما فعل ابراهيم بن محمد البيهقي في كتابه (المحاسن و المساوئ) ، حيث أورد في المحاسن أمثالاً منها :

❖ قولهم : إنه لطويل النجادين ، يريدون كماله و تمامه في جسمه .

❖ و قولهم : شديد الجفن ، إذا كان صبوراً على السهر .

❖ و قولهم : إنه لطاهر الثياب ، أي ليس في قلبه غش .

و أورد في المساوئ أمثالاً منها :

❖ قولهم : إنه لجعد البنان ، و هو بخيل .

❖ و قولهم : الحمّى أضرعتني لك و إليك ، أي : الحاجة أذلّتني إليك و لك .

و على كل حال ، فإن لهذه الأقوال المأثورة و الأمثال وغيرها ، كما أسلفنا ، جذورا و حكايات أفرزتها ، و على العاقل المتبصر أن ينتفع مما تتضمنه من عبر ، بدلاً من أن يعيش ما يماثل التجربة التي قيلت فيها ، وقد لا تكون في صالحه على الإطلاق ، و تلك هي الحكمة من الأمثال !

(جدير به) و ما شاكلها

تتقارب بعض مفردات اللغة حتى تكاد تتطابق ، لدى بعض الناس ، و إنما لكل واحدة منها استعمالها الخاص بها على وجه الدقة .

من هذه المفردات : قمين ، و حريّ ، و خليق ، و جدير . فالشائع استعمالها للتعبير عن لزوم قيام شخص ما بعمل معين . فنقول مثلا : جدير بأحمد ، أو خليق به ، أو حريّ به ، أن يتقن عمله . بينما هناك ، كما أسلفنا ، فرق بين هذه المفردات في المعنى .

فالقمين تقتضي مقاربة الشيء و الدنوّ منه حتى يرجى تحققه ، و لذلك قيل : خبز قمين ، إذا بدأ ينكرج كأنه دنا من الفساد .

و قولك : حريٌ به يقتضي أنه مأواه ، فهو أبلغ من القمين ، و التحري في الأشياء طلب ما هو أحرى بالاستعمال في غالب الظن .

و أما خليق به ، فمعناه أن ذلك مقدرفيه ، و أصل الخلق التقدير ، كقولك : خليق به أن ينجح .

و أما قولهم : جدير به ، فمعناه أن ذلك يرتفع من جهته ، و يظهر من قولك : جدر الجدار ، إذا بني و ارتفع ، ومنه سمي الحائط جدارا . و عليه ، فإن قولك : جدير بفلان أن يفعل هذا ، يعني أن يرتفع فلان إلى فعل هذا الأمر .

هكذا هم الناس.. دائماً !

ُسرق لبعضهم بغل ، فقال أحد أصحابه له : الذنب ذنبك في إهماله . و قال آخر : الذنب للسائس الذي غفل عنه . و هكذا انشغلوا عن أمر اللص في ذلك . فقال المسروق : يا قوم ، و اللص أما له ذنب ؟ !

من عيون الشعر

قال ماني المُوَسْوس متغزلاً :

لي إلى الريح حاجةٌ لو قضتْها
كنت ُللريح ، ما حييت ُ، غلاما
حجبوها عن الرياح لأني
قلت : ُيا ريح ُبلّغيها السلاما
لو رضوا بالحجابِ هان ولكن
منعوها يوم الرياح الكلاما
فتنفّست ُثم قلت ُلطيفي
ويكَ إنْ زرتَ طيفَها إلماما
حيّها بالسلام سراً و إلاّ
منعوها ، لشقوتي ، أنْ تناما !